قراءات حداثية لبعض قضايا علوم القرآن

عرض ونقد "علم أسباب النزول نموذجًا"

إعداد
د/ مريم فتحي كامل حرب
مدرس التفسير وعلوم القرآن في كلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنات بدمنهور

قراءات حداثية لبعض قضايا علوم القرآن، عرض ونقد
" علم أسباب النزول نموذجًا"

مريم فتحي كامل حرب.
قسم التفسير وعلوم القرآن، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بدمنهور، جامعة الأزهر- مصر.
البريد الألكتروني: 1621020143@azhar.edu.eg

ملخص البحث:

يهدف البحث إلى بيان أهمية علم "أسباب النزول" كعلم خادم للنص القرآني، وبيان معايير الرواية والتلقي للروايات المتعلقة بأسباب النزول، بما يسقط نظرية الحداثيين القائمة على تناول هذا العلم ضمن بيئته وزمانه، بما يهدف إلى تأويل النص القرآني، وإعادة قراءته(أي: تفسيره) تفسيرًا يتناسب على حد زعمهم مع مستجدات الواقع والزمان، وقد اتبعت في هذا البحث المنهج الاستقرائي التحليلي النقدي لتلك المزاعم المثارة، والتي تبين عدم حيادية وصدق منطلقاتها، وأنها لا تعدوا إلا أن تكون مستوردة ومستجلبة من بيئة علمانية، الهدف منها القضاء على فكرة الدين وإخراجها من دائرة التقديس، سعيًا إلى خلخلة الاعتقادات، وزحزحة القناعات واليقينيات، والخروج من الأصول العقائدية، وإعادة النظر في جميع العقائد الدينية، عن طريق إعادة القراءة لما قدمه الخطاب الديني، ووسيلتهم في ذلك هي" هدم الأصل بالأصل نفسه" هذه الآلة ما هي إلا التأويل الباطني الغنوصي الذي ينفي التلقي المطلق ويقيم على أنقاضه دين العقل، وقد اشتمل البحث على خمسة مباحث: المبحث الأول: تناولت فيه علم أسباب النزول للنص القرآني ، وطريق معرفته، المبحث الثاني: تعرضت للرؤية الحداثية لعلم أسباب النزول، المبحث الثالث: بينت القواعد التي بنى عليها دعاة الحداثة أفكارهم فيما يخص علم أسباب النزول، المبحث الرابع: قمت بتحديد مصطلح أسباب النزول عند علماء علوم القرآن، والحداثيين، المبحث الخامس: كشفت عن إشكاليات العقلية الحداثية في تصورها لقضية أسباب النزول، وتفنيد ذلك. وقد خلُص البحث إلى: عدم الالتفات إلى دعوات التجديد الهادفة لهدم أصالة الأمة وعراقتها، وكذلك إعادة النظر في آلية تدريس أبواب علوم القرآن ، باستنطاق ما بها من حِكَم ودلائل وأسرار لخدمة النص، بعيدًا عن عرضها في قوالب جامدة.

الكلمات الافتتاحية: قراءات، الحداثة، إشكالات، علوم القرآن، أسباب النزول.

Modernist Readings in Qur'ānic Sciences: A Critical Analysis Asbāb al-Nuzūl as a Case Study

Maryam Fathy Kamel Harb.

Department of TafsĪr and Qur'ānic Sciences, Faculty of Islamic and Arabic Studies for Girls in Damanhur, Al-Azhar University, Egypt

Email: 1621020143@azhar.edu.eg

Abstract:

This study addresses the significance of the science of Asbāb al-Nuzūl (occasions of revelation) as a discipline that supports the interpretation of the Qur'ānic text. It focuses on the methodological standards for the transmission and reception of narrations related to this science, and it critically evaluates modernist approaches that seek to confine the discipline to its socio-historical context in order to justify reinterpreting the Qur'ān in a manner that, from their perspective, reflects contemporary realities and changing historical conditions.

The study adopts an inductive, analytical, and critical approach to examine these claims. It demonstrates that the modernist project lacks epistemological neutrality and draws heavily from secular intellectual frameworks that aim to undermine the sacred foundations of religion. These approaches are part of a broader effort to dismantle established beliefs and displace religious certainty by reinterpreting foundational texts through methods that are not rooted in the Islamic tradition. Their central strategy may be described as "dismantling the source through the source itself," a hermeneutical technique that relies on esoteric reinterpretation and dismisses traditional notions of authoritative transmission in favor of a purely rationalized form of religiosity.

The study is structured into five main sections: The first outlines the nature and purpose of Asbāb al-Nuzūl and the means by which it is

determined; The second examines how this science is approached within modernist discourse; The third analyzes the methodological foundations upon which modernist readings are constructed; The fourth compares definitions of Asbāb al-Nuzūl in classical Qurʾānic scholarship with those proposed by modernist interpreters; The fifth critiques the conceptual framework of modernist thought as it pertains to this field.

The study concludes by cautioning against modernist reformist calls that aim to undermine the intellectual and spiritual continuity of the Muslim community. It recommends a reassessment of how the sciences of the Qurʾān are taught, advocating for pedagogical methods that bring to light the deeper wisdom, structure, and interpretive depth of these disciplines, rather than reducing them to static formulations.

Keywords: Modern Readings , Modernity , Methodological Challenges ، Qurʾānic Sciences , Occasions of Revelation (Asbāb al-Nuzūl).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدّمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي الكريم، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين، وبعد:

فقد وفدت إلينا النزعة التاريخية الحداثية[(١)] ضمن الوافد التغريبي الذي أتي إلينا في ركاب الغزو الاستعماري الغربي، الذي تسلح بفكر عصر التنوير الأوروبي ساعيًا لاحتلال العقل المسلم .

وقد وَجَدَت هذه النزعة لها أنصارًا بين المتغربين العرب والمسلمين؛ الذين سعوا إلى أن تكون نهضتنا قائمة على تحرير العقل والمجتمع من الإسلام على غرار تحرر العقل والمجتمع الأوروبي من الكنيسة واللاهوت[(٢)].

(١) هي: إعادة تفسير النص الديني على وفق المفاهيم العصرية؛ لأنَّ الأحكام تتغير بتغير الزمان والمكان. فهو يعني: "النظر إلى كل موضوع معرفي على أنه نتاج حاضر ناشئ عن التطور التاريخي. وقد تعددت تعريفات الحداثيين (للتاريخية) باعتبارها الأساس في منطلقهم لتجديد أحكام الشريعة وعلومها، ومن هذه التعريفات:
١- "التحول والتغيير؛ أي تحول القيم وتغييرها بتغير العصور والأزمان".
٢- "أنَّ للأحداث والممارسات والخطابات أصلها الواقعي وحيثياتها الزمانية والمكانية وشروطها المادية والدنيوية، كما تعني: خضوع البنى والمؤسسات والمفاهيم للتطور والتغير؛ أي قابليتها للتحويل وإعادة التوظيف". ينظر: "من الاجتهاد إلى نقد العقل الإسلامي" محمد أركون، (ص:٢٦)، "نقد النص" على حرب(ص:٦٥).
فتاريخية النص القرآني عندهم تعني :"أنه مرتبط بظروف وأسباب نزوله والسياقات المجتمعية التي أحاطت بنزوله ،مما يعني أن ما اشتمل عليه من أحكام قد ارتبط بعصره وزمانه الذي نزل فيه ،وأسبابه التي تنزل من أجلها، وما أحاط بتنزله من سياقات مجتمعية. ينظر: "القراءة الحداثية للنص القرآني"، النعيمي (ص:١٠٧، ١٠٩)، "العلمانيون والقرآن الكريم"، د/ أحمد الطعان (ص:٤٧٦)، "معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية"، جلال الدين السعيد (ص:٤٨).
(٢) ينظر: خطر النزعة التاريخية على ثوابت الإسلام) ص:٦).

والناظر إلى كتابات أنصار هذه النزعة التاريخية من- الحداثيين والعلمانيين- يرى أنهم قد قصدوا إلى إقامة القطيعة- المعرفية والعملية – مع شريعة الإسلام، وكل ما يتصل بها من فقه ومعاملات حتى العلوم المتعلقة بكتاب الله- ﷻ- نالها ما نال غيرها.

وقد سار المستغربون من العرب على منوال هؤلاء، واستعاروا مفرداتهم ومناهجهم وارتدوا أزياءهم الفكرية والفلسفية، وجاءوا بحماس من يريد الهدم السريع، والتخريب المباشر، وتوجهوا إلى نصوص القرآن العظيم، ثم إلى نصوص السنة الشريفة، ثم إلى سيرة وحياة الرسول الكريم- ﷺ- يدرسونها وفق هذه النظرية المستعارة، وقد أخذوها بتسليم كامل، وقطعوا بصحتها، وأصبحوا يعتقدون بهذه المناهج وهذه الفلسفات اعتقادًا جازمًا، ويجعلونها مقياسًا لكل أمر يتناولونه، ومن يقرأ

كلام أركون[1] فيما يسميه "بالتاريخية" يرى بوضوح مقدار تشبعه بهذا المنهج، حتى أصبح عقيدة يزن بها الكتب المنزلة، وكل قضايا الوحي ومقتضياته[2].

وقد تعامل المستغربون مع الوحي على الطريقة الغربية، بوصفه فكرة من الأفكار، يدرسون كيفية انتشاره، والنزعات التي أثرت في وجوده وتطوره مستبعدين قضية "عصمة الوحي" و"عصمة المبلغ"، ووحدانية الموحي والآمر به، ثم يصدرون بناء على دراسة الظروف والملابسات والأوضاع التي مرت بها نصوص الوحي يصدرون بناءً على ما سبق الحكم على النص، وخاصة المستغربين من أبناء الشرق، يطبقون سائر مقتضيات هذا المنهج "التاريخي" على نصوص الوحي ، بصورة تدل على اعتقادهم العميق بعصمة هذا المنهج وصحته.

(١) هو محمد أركون، ولد في منطقة القبائل في الجزائر، درس في السربون، وأصبح أستاذًا فيها بعد نيله الدكتوراه منها، له كتب عديدة تنضح ببغضاء شديدة ضد اللغة العربية، التي ينادي بتفجيرها، ويسخر من المؤمنين باعتقادهم بأن الله تعالى خالق العالم، ويستخدم مصطلح "التاريخية" أو التاريخانية" بتقديس كامل، ويمجد كل معارض للإسلام، وينتقد كل من يثني على شيء في الإسلام. ينظر: "الإسلام والحداثة" لعبد المجيد الشرفي(ص:٤١٨).
(٢) ينظر: "الانحرافات العقدية في أدب الحداثة"، د/ سعيد الغامدي (٢/ ١٠٦٤-١٠٦٥).

وهذه النظرة المتشددة في استخدام "التاريخية" كأداة لدراسة النص، وتعميم منهجها والقطع بنتائجها، إلى حد التقديس والحكم القاطع، وجعلها حتمية لازمة صائبة النتائج في كل الأحوال، هي التي غرق فيها سائر المعارضين للوحي المشككين في صحته، وهم في كل ذلك ليس لهم إلا دور الاستيراد والتبني[1].

نعم، ليس لهم إلا دور الاستيراد والتبني، وعليه فقد استبعد الحداثيون مفهوم "قداسة النص" في التعامل مع القرآن الكريم، زاعمين أن إضفاء القداسة على القرآن الكريم يحرم الولوج إلى دلالاته العميقة، وحجة الحداثيين في قطع الصلة بين القرآن الكريم وكتب التفسير، واستبعاد مناهج المفسرين، هو من باب استبعاد الوساطة في فهم النص

الديني، على غرار الثورة الغربية على آراء الكنيسة في تفسير الكتاب المقدس، والاقتصار على الكتاب وحده.

ولا شك أنه قياس فاسد؛ إذ إنَّ أخذ التفسير عن أهل الاختصاص ليس سلطة كهنوتية، فهم جميعًا محكومون بمنهج واضح لا لبس فيه، لا يحيدون عنه، ووفق أدوات محددة، فهم لا يُحِلون أو يُحَرِّمُون كما يشتهون، حتى يقال إنهم يمارسون سلطة كهنوتية على الناس في تلقي القرآن الكريم.

ولمَّا كان القرآن الكريم وعلومه هما الوجهة التي وجه إليها الحداثيون سهامهم المسمومة، كان لعلم "أسباب النزول" نصيب من الهدم والتشويه؛ لغرض هدم واختراق النص، والعبث بتفسيره على حسب ما تمليه أهواؤهم وأغراضهم.

ومن هنا يمكن أن نستعرض بعض الأسئلة التي تضمنها وعالجها البحث وهى :

(١) ما أهمية علم أسباب النزول بالنسبة للنص القرآني، وماذا يعني بالنسبة له؟

(٢) وكيف كانت رؤية هذا العلم في المنظور الحداثي؟

(٣) وكيف يمكن الرد على تلك الإشكاليات المثارة حول هذا العلم الخادم للنص القرآني؟

(١) ينظر: "الانحرافات العقدية في أدب الحداثة"، د/ سعيد الغامدي (٢/ ١٠٦٤-١٠٦٥).

وللإجابة على تلك الأسئلة؛ جاء هذا البحث تحت عنوان: "قراءات حداثية لبعض قضايا علوم القرآن "علم أسباب النزول أنموذجًا".

أسباب اختيار الموضوع:

تعددت أسباب اختيار هذا الموضوع، ونجملها فيما يلي:

١- التحذير من أهل الأهواء والانحرافات، والكشف عن رؤية الحداثيين وتصورهم لعلم أسباب النزول والخلفيات الفكرية التي ينطلقون منها، وتحذير أبناء الأمة من طرق الزيغ والانحرافات المهلكة؛ إبقاءً لسنة التدافع بين الحق والباطل.

٢- أهمية الوقوف على تلك الشبهات التي تتعلق بعلم "أسباب النزول" باعتباره علمًا خادمًا للنص القرآني، وذلك بالكشف عن الأصول التي يقوم عليها هذا العلم ودوره الأصيل في البيان القرآني.

٣- المآلات الخطيرة المترتبة على انتشار مثل هذه الدعوات، خاصة مع سهولة التواصل بين العالم أجمع، والترويج لها عبر وسائل الاعلام، ونشر كتبهم، وقيام الداعمين لتلك الأفكار بالترويج لها، مما يحدث خلطًا وبلبلة لغير الدارسين والمتخصصين.

خطة البحث ومنهجه:

اتبعت في هذا البحث **المنهج الاستقرائي النقدي والتحليلي:**[1] وذلك لما تقتضيه طبيعة البحث من عرضٍ لمزاعم الحداثيين، وتناولها بالعرض والتحليل.

وقد اشتمل البحث على ما يلي، مقدمةٍ، وخمسة مباحث:

(١) المنهج الاستقرائي التحليلي: الذي يبدأ بالجزئيات ليصل منها إلى قوانين عامة مع تحليل جميع الأدلة التي يتم التوصل إليها. ينظر: البحث العلمي مناهجه وتقنياته: د/ محمَّد زيان عمر، ص ٣٢، ط/ جدة بالسعودية، ١٣٩٤ هـ). أما المنهج النقدي: فهو التفسير والتحليل والحكم ، فالناقد يمر بمرحلة النظر في النص بتفحص وتدبر ، ثم ينتقل إلى الحكم عليه، ونقده وتمييز صحيحه من سقيمه. ينظر: مقدمة في النقد الأدبي /د: علي جواد الطاهر(ص:٣٣٩).

- أما المقدمةُ: فقد احتوت على تصور لقضية التاريخية في المنظور الحداثي.
- والمباحثُ بيانها كالآتي:
- المبحث الأول :أهمية علم أسباب النزول للنص القرآني ، وطريق معرفته.
- المبحث الثاني: الرؤية الحداثية لعلم أسباب النزول.
- المبحث الثالث: القواعد التي بنى عليها دعاة الحداثة أفكارهم فيما يخص علم أسباب النزول.
- المبحث الرابع: تحديد مصطلح أسباب النزول عند علماء علوم القرآن، والحداثيين.
- المبحث الخامس: إشكاليات العقلية الحداثية في تصورها لقضية أسباب النزول، وتفنيد ذلك.

المبحث الأول

أهمية علم أسباب النزول بالنسبة للنص القرآني ، وطريق معرفته.

لمعرفة أسباب النزول فوائد جليلة لابد من معرفتها في سياق التعرف على تفسير الآية وبيان معناها، وهي:

1- **معرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم،** وأنه قام على رعاية مصالح الناس، وذلك نحو)حادثة الظهار[1] التي وقعت للسيدة خولة بنت ثعلبة مع زوجها أوس بن الصامت[2]، فشرع الله الكفارة في ذلك رحمة بها وبأمثالها.

2- **دفع توهّم الحصر،** كما في قوله – تعالى-:﴿**قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ**﴾ (الأنعام: ١٤٥).

إنّ الكفّار لما حرّموا ما أحلّ الله، وأحلّوا ما حرّم الله، وكانوا على المضادّة والمحادّة جاءت الآية مناقضة لغرضهم فكأنه قال: (لا حلال إلا ما حرّمتموه ولا حرام إلّا ما أحللتموه) **والغرض المضادّة، لا النفي والإثبات على الحقيقة،** فكأنه قال:

---

(١) الظهار: هو أن يُشبِّه الرجل زوجته بامرأة محرمة عليه على التأبيد، أو بجزء منها يحرم عليه النظر إليه، كالظهر أو البطن أو الفخذ، كأن يقول لزوجته: أنتِ علي كأمي، أو أختي، أو بنتي ونحو ذلك، أو يقول: أنتِ علي كظهر أمي، أو كبطن أختي. ينظر: الإحكام شرح أصول الأحكام لابن قاسم (٤/ ١٥٢)، موسوعة الفقه الإسلامي (٤/ ١٧٣) للتويجري.

(٢) روي عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رضى الله عنه-، قَالَ: كَانَ ظِهَارُ الْجَاهِلِيَّةِ طَلَاقًا، فَأَوَّلُ مَنْ ظَاهَرَ فِي الْإِسْلَامِ أَوْسُ بْنُ الصَّامِتِ أَخُو عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ مِن امْرَأَتِهِ الْخَزْرَجِيَّةِ، وَهِيَ خَوْلَةُ بِنْتُ ثَعْلَبَةَ بْنِ مَالِكٍ؛ فَلَمَّا ظَاهَرَ مِنْهَا حَسِبَتْ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ طَلَاقًا، فَأَتَتْ بِهِ نَبِيَّ اللَّهِ -ﷺ-، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أَوْسًا ظَاهَرَ مِنِّي، وَإِنَّا إِنِ افْتَرَقْنَا هَلَكْنَا، وَقَدْ نَثَرْتُ بَطْنِي مِنْهُ، وَقَدِمَتْ صُحْبَتُهُ؛ فَهِيَ تَشْكُو ذَلِكَ وَتَبْكِي، وَلَمْ يَكُنْ جَاءَ فِي ذَلِكَ شَيْءٌ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿**قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا**﴾ [المجادلة: ١] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿**وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [البقرة: ١٠٤] فَدَعَاهُ رَسُولُ اللَّهِ- ﷺ-فَقَالَ: «أَتَقْدِرُ عَلَى رَقَبَةٍ تُعْتِقُهَا؟» فَقَالَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَقْدِرُ عَلَيْهَا. فَجَمَعَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- حَتَّى أَعْتَقَ عَنْهُ، ثُمَّ رَاجَعَ أَهْلَهُ. أخرجه الطبري في تفسيره (٢٢/ ٤٥٥) سورة المجادلة/(آية /١).

لا حرام إلا ما حللتموه من الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهلّ لغير الله به، ولم يقصد حلّ ما وراءه؛ إذ القصد إثبات التحريم لا إثبات الحلّ[(١)].

٣- **ومن فوائد هذا العلم أيضًا إزالة الإشكال.** ففي «الصحيحين» عن مروان بن الحكم: «أنّه بعث إلى ابن عباس يسأله: لئن كان كلّ امرئ فرح بما أوتي وأحبّ أن يحمد بما لم يفعل معذّبًا، لنعذّبنّ أجمعون، فقال ابن عباس: هذه الآية نزلت في أهل الكتاب ثم تلا: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ (١٨٧)**﴾ (آل عمران: ١٨٧) إلى قوله – تعالى-: ﴿**لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨٨)**﴾ (آل عمران:١٨٨).

قال ابن عباس: سألهم النبيّ-صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- عن شيء فكتموه، وأخبروه بغيره فخرجوا، وقد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه، فاستحمدوا بذلك إليه، وفرحوا بما أوتوا من كتمانهم ما سألهم عنه»[(٢)]. فَفَهمُ معنى تلك الآية دون الوقوف على سياقاتها التي نزلت فيها، يؤدي إلى الإشكال واللبس، وليس المراد حبس المعنى على سياقه؛ وإنما تصدق عليهم وعلى غيرهم ممن حذا حذوهم ونهج نهجهم.

ومن ذلك قوله –تعالى:- ﴿**لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾ (المائدة: ٩٣) وذلك أنه لما نزل تحريم الخمر، قالوا: كيف بإخواننا الذين ماتوا وهي في بطونهم. وقد أخبر الله أنّها رجس! فأنزل الله -تعالى-:﴿**لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ**﴾ (المائدة: ٩٣) [(٣)].

---

(١) البرهان في علوم القرآن (١/ ٢٣) للزركشي.

(٢) أخرجه: البخاريُّ في "صحيحه" كتاب التفسير، باب: قوله –تعالى-:﴿**لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا**﴾ (٤٠/٦) ح(٤٥٦٨)، ومسلمٌ في "صحيحه" كتاب: صفات المنافقين وأحكامهم (٢١٤٢/٤) ح(٨٢٧٨)، من حديث ابنِ عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه: البخاريُّ في "صحيحه" كتاب: التفسير: باب: قوله- تعالى-: ﴿**لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا**

فلو أخذنا بظاهر المعنى الذي اشتملت عليه الآية: وهو أنه لا حرج على المؤمن فيما يطعمه إذا تلبس بالإيمان والتقوى، لوقع في ذلك إشكال بَين إطلاق هذه الآية والتقييد الذي تضمنته واشتملت عليه آيات تدل على تحريم بعض المطعومات كالخمر والميتة، فكان الرجوع إلى سياقات نزول الآية دفعًا لهذا اللبس والإشكال.

**فتبين أن من فوائد معرفة أسباب النزول معرفة الوجه الذي يكون عليه معنى الآية، وإزالة أي إشكال قد يرد في بيان معناها، قال ابن دقيق العيد: "بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن"، وقال ابن تيمية: معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب."[(١)] .

طريق معرفة أسباب النزول:

ليس هناك طريق لمعرفة سبب النزول؛ إلا النقل الصحيح عن الصحابة – رضى الله عنهم- الذين عاصروا الوحى والتنزيل، ووقفوا على الملابسات التي أحاطت بنزول الآيات .

قال الإمام الواحدي-رحمه الله-: "ولا يحل القول في أسباب نزول الكتاب، إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل، ووقفوا على الأسباب، وبحثوا عن علمها، وجدوا في الطلب[(٢)].

وقول الصحابي في شيء من هذا العلم من المرفوع حكمًا، وهو الذي نص عليه الحافظ أبو عمرو بن الصلاح فقال:" ما قيل من أن تفسير الصحابي حديث مسند فإنما ذلك في تفسير يتعلق بسبب نزول آية يخبر به الصحابي أو نحو ذلك"[(٣)].

=

﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ﴾ (٥٤/٦) ح(٤٦٢٠)، ومسلمٌ في "صحيحه" كتاب: الأشربة، بَاب/ تَحْرِيمِ الْخَمْرِ، وَبَيَانِ أَنَّهَا تَكُونُ مِنْ عَصِيرِ الْعِنَبِ، وَمِنَ التَّمْرِ وَالْبُسْرِ وَالزَّبِيبِ، وَغَيْرِهَا مِمَّا يُسْكِرُ(١٥٧٠/٣) ح(١٩٨٠)، من حديث أنسٍ - رضي الله عنه-.

(١) العجاب في بيان الأسباب (١/ ٩٦).

(٢) أسباب النزول (ص: ٨).

(٣) مقدمة ابن الصلاح = معرفة أنواع علوم الحديث(ص: ١٢٤).

وسبقه الحاكم النيسابوري فقال في ذلك بعد أن ساق حديثًا عن جابر – رضى الله عنه-:" هذا الحديث وأشباهه مسندة عن آخرها، وليست بموقوفة، فإن الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل فأخبر عن آية من القرآن أنها نزلت في كذا وكذا فإنه حديث مسند[١].

وإن كان سبب النزول مرسلًا أي: لم يذكر فيه الصحابي، فاشترط السيوطي لقبوله شرطين بعد صحة سنده:

الأول: أن يكون راويه معروفًا بأن لا يروي إلّا عن الصحابة.

الثاني: أن يرد له شاهد مرسل أو متصل ولو ضعيفًا[٢].

فتبين مما سبق أن الطريق الوحيد لمعرفة سبب النزول هو الرواية والسماع من النبي- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فقط، وليس الرأي والاجتهاد، وعلى هذا فإن الحكم بثبوت سبب للنزول أو عدمه يتم بالنظر في ثبوت الرواية التي نَقَلت السبب، لمعرفة صحة الرواية من عدمه.

ولأهمية هذا العلم أولاه العلماء واعتنوا بالتأليف فيه: فكان منهم الإمام: (عليّ ابن المديني) شيخ الإمام البخاريّ، والإمام الواحديّ وكتابيهما: «أسباب النزول» و"العجاب في بيان الأسباب " لابن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ).

كما ألف فيه الإمامان "الزركشي" في البرهان، والسيوطي في" الإتقان" وألف فيه الإمام الأجهوري (ت/ ١١٩٠ه) كتابه: إرشاد الرحمن لأسباب النزول .

وقد استهل الإمام الزركشي الحديث عن هذا النوع من أنواع علوم القرآن بقوله: "وأخطأ من زعم أنه لا طائل تحته، لجريانه مجرى التّاريخ، وليس كذلك، بل له فوائد: منها: معرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم. ومنها: تخصيص الحكم به عند من يرى أنّ العبرة بخصوص السبب، ومنها: الوقوف على المعنى"[٣].

---

(١) معرفة علوم الحديث(ص: ٢٠).
(٢) التحبير في علم التفسير(ص: ٤٩).
(٣) البرهان في علوم القرآن (١/ ٢٣) للزركشي.

المبحث الثاني

الرؤية الحداثية لعلم أسباب النزول.

القضية الأساسية التي يسعى الحداثيون إلى ترسيخها، أن النص القرآني قابل للتأويل، ومن الممكن صرفه عن ظاهره إلى المجاز، وبالتالي يريدون أن يجعلوا من الإسلام دينًا مرنًا يسقطون الكثير من أصوله التي توارثها المسلمون عبر الأجيال، زاعمين أنه من خلال التأويل يمكن أن يُفَصِّلوا إسلامًا يناسب كل عصر.

يقول محمد سعيد العشماوي: "إن آيات التشريع في القرآن الكريم مرتبطة بسبب النزول، فهي عنده تاريخية طويت صفحتها، وانتهى عصر إعمالها بانتهاء التاريخ الذي نزلت فيه، والذي حدثت فيه أسباب النزول، وعليه فالآيات التشريعية قد طُويت صفحتها بوفاة الرسول-صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- فيُسَمِّي "اكتمال الوحي" "انعدام الوحي"[(١)].

ويقول عن آيات التشريع في القرآن الكريم: "إن هذه القواعد قد أصبحت حُكمًا تاريخيًا ليست له أية قوة ملزمة[(٢)] ....، وإن أحكام المعاملات ليست دائمة، لكنها أحكام مؤقتة ومحلية ،تنطبق في وقت محدد، وفي مكان بعينه[(٣)].

ويجعل من علم أسباب النزول[(٤)] برهانًا على تاريخية النص القرآني، التي طوى التاريخ صفحتها، فيقول: "فأحكام التشريع في القرآن ليست مطلقة، ولم تكن

(١) ينظر: أصول الشريعة، محمد سعيد العشماوي(ص:١٧٩-١٨٠) طبعة القاهرة- سنة -١٩٧٩م).

(٢) يرى أنها تستمد إلزامها من قائلها، وما دام قد مات القائل، فقد سقط الموجِب للإلزام. فهل القوة الملزمة لتطبيق الحكم الشرعي على المكلفين نابعة من النص ذاته وقائله، أم من المبلغ عنه ؟!!!

(٣) معالم الإسلام (ص:١١٢)لمحمد سعيد العشماوي.

(٤) تبلغ آيات القرآن الكريم حوالي(٦٢٧٦) آية، والآيات التي ورد لها سبب نزول -عند الإمام السيوطي -الذي تساهل في قبول الروايات لا تزيد عن(٨٨٨) آية-أي (١٤%) من آيات القرآن الكريم.- أما عند الإمام الواحدي الذي دقق نوعًا ما في قبول روايات أسباب النزول، فإن هذه الآيات عنده لا تتجاوز (٤٧٢) آية- أي(٧,٥ %) من آيات القرآن الكريم. ينظر: سقوط الغلو العلماني، د/ محمد عمارة (ص/٢٥٥-٢٦١)، طبعة دار الشروق -القاهرة سنة١٩٩٥م.

مجرد تشريع مطلق[١]... فكل آية تتعلق بحادثة بذاتها، فهي مخصصة بسبب التنزيل، وليست مطلقة.."[٢].

ويقرر ما هو أبعد من ذلك فذهب إلى أنَّ (الواقع) هو صانع "الشريعة"، وليس "الوحي الإلهي ... والتنزيل السماوي".

فيقول: "إن الشريعة إنما ارتبطت بالواقع، ودارت فيه، وتناسجت به، تأخذ منه عوائده وأعرافه، وتحكم قواعدها على أسباب منه، وتلاحق أحكامها تطوره"[٣].

فالواقع عنده هو "المصدر" و "المرجع". وما عداه من نبأ السماء "تاريخي" و"مؤقت" ... "طويت صفحته بوفاة الرسول-صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ-، وانتهاء أسباب النزول في عصر التنزيل !!

هذه هي "تاريخية الإسلام" – عقيدته ... وشريعته ... وأخلاقه - في المذهب العشماوي![٤].

والنموذج الثاني من نماذج الداعين إلى تاريخية النص القرآني، والقطيعة مع الدين الإسلامي وعقيدته هو الدكتور/ حسن حنفي.

الذي كانت مهمته تتمثل في الدعوة إلى القطيعة مع الإلهيات وإحلال الإنسانيات محلها، أي أنسنة "اللّه" و" الدين" - تعالىً اللّهُ عمَّا يقولون علوًّا كبيرًا-.

وفي ذلك يقول: "إنَّ مهمتنا أن ننتقل بحضارتنا من الطور الإلهي القديم إلى طور إنساني جديد، فبدلًا من أن تكون حضارتنا متمركزة على اللّه تكون متمركزة

على الإنسان، وتحويل قطبها من علم اللّه إلى علم الإنسان، إن تقدم البشرية مرهون بتطورها من الدين إلى الفلسفة[٥]، ومن الإيمان إلى العقل، ومن

(١) معالم الإسلام (ص:١٢٠).
(٢) الإسلام السياسي (ص:٤٤).
(٣) أصول الشريعة(ص:٨٤).
(٤) خطر النزعة التاريخية على ثوابت الإسلام (ص:١٧) د/ محمد عمارة.
(٥) إن هؤلاء يحتجون بأن – التاريخية - هي التي جعلت الغرب ينهض ويتقدم، ويخرج من عصوره المظلمة، وأنهم يريدون بهذا "الاستجلاب" لهذه الثقافة النهوض والتقدم لأمتنا، إلا =

مركزية الله إلى مركزية الإنسان، حتى تصل الإنسانية إلى طور الكمال، وينشأ المجتمع العقلي المستنير[1].

=

أنهم يغفلون ويتغافلون عن الفروق الجوهرية بين إسلامنا، وبين لاهوت النصرانية الغربية، لقد اختزلت الكهانة الكنسية الحقيقة والعلم في الإنجيل، وحرَّمت التجريب في الواقع؛ لأنه " دَنَس"- ومملكة المسيح ليست في هذا العالم الدنس ....، ومن هنا دخلت هذه الكهانة الكنسية بأوروبا في عصور الظلمات ....، فلم يجد فلاسفة التنوير أمامهم إلا هذه "التاريخية "التي تنسخ هذا اللاهوت الخرافي لتكسر قيوده وتحطم أغلاله عن رقاب الشعوب، وتحيله بالتاريخية إلى "مستودع التاريخ" – أما إسلامنا فهو بريء من الكهانة – بل عدو لها. ينظر: خطر النزعة التاريخية على ثوابت الإسلام (ص:٣٩) د/ محمد عمارة.

(١) دراسات إسلامية، حسن حنفي (ص:١٢٨) – طبعة بيروت، سنة ١٩٨٢م.

المبحث الثالث

القواعد التي بنى عليها دعاة الحداثة أفكارهم فيما يخص علم "أسباب النزول"

ينطلق الحداثيون في تصورهم لعلم "أسباب النزول" من منطلق -التاريخية-، التي تنزع القداسة عن النصوص الدينية، وتنفي العموم والإطلاق والخلود عن أي من الحقائق والمعاني والدلالات والأحكام التي جاءت في نصوص القرآن الكريم، وتجعل من النصوص الدينية نصوصًا بشرية صنعها الواقع، فالواقع هو الأساس في تشكيل النص، والواقع هو الحاكم على النص بالتأقيت وليس الدوام والخلود[1].

ومن أسباب الخلل لدى المنظور الحداثي في نظرته لعلم أسباب النزول، أنَّ الأدوات المستخدمة لدى الحداثيين؛ هي في تشكيلها وصياغتها أدواتٌ أجنبيةٌ على العلوم الشرعية وعلى علوم القرآن، ومن مظاهر ذلك:

(١) أنهم ينطلقون في فهمهم لأسباب النزول من منظور اجتماعي بحت، فيعتنون بدراسة الظواهر الاجتماعية التي كانت سببًا مباشرًا، أو مؤثرًا في نشوء الأفكار، وهذه النظرة أدت بهم إلى رؤية أسباب النزول من زوايا تخالف حقيقتها.

أ- فأحيانًا يوظفونها لإثبات تاريخية النص، وأنه محصور في حيز زماني محدد لا يتجاوزه، وفي ذلك يقول الدكتور/ عبد المجيد النجار، محذرًا من هذه النزعة: "وقد يشكل على بعضهم علاقة المعنى الذي يتضمنه النص بالسبب الذي نزل فيه، فيقع الميل إلى تخصيص الحكم بذلك السبب أحداثًا وأشخاصًا، وفهمه على أنه مقصور عليه، وهذه نزعة نلحظ فيها اليوم رواجًا، لدى من يرومون المروق من مبدأ الاستمرارية في الهدي النبوي؛ حيث جنحوا إلى تخصيص الكثير من أحكام الوحي بأسبابها الظرفية، وجعلوا ذلك مبرر الاستعاضة عنها بأحكام وضعية.

(١) خطر النزعة التاريخية على ثوابت الإسلام(ص:٣٧).

ومن البين أن هذه النزعة كفيلة بأن تهدم الدين أصلًا؛ حيث تنتهي به إلى وضع من التاريخية ينقطع به عن الحياة ويؤول به إلى العطالة الكاملة، ولعل من مظاهر الحكمة الإلهية، أن كانت الأسباب التي نزل فيها الوحي غير مضمنة في النص القرآني، بل ظل النص مصوغًا في صياغة عامة كلية، حتى يبقى ذلك العموم في البيان، مفيدًا للعموم في الأحكام، مطلقًا من قيود التشخيص في الزمان والمكان [1].

ب- وأحيانًا يرون أنَّ علم أسباب النزول، هو: من انتاج الفقهاء من أجل تسويغ آرائهم الخاصة[2].

وهذه النظرة في جميع تجلياتها لا يشك مسلمٌ في أنها تتنافى مع الشرع، ولها آثار خطيرة، ومن هنا لزم نقاشها من خلال المبحث التالي:

---

(١) تجديد الدين لدى الاتجاه العقلاني الإسلامي المعاصر(ص:٢٨٩).

(٢) ينظر: أسباب النزول وازدواجية التوظيف الحداثي، إعداد: الحضرمي أحمد الطلبة، باحث بمركز سلف للبحوث والدراسات(ص: ٣،٢).

المبحث الرابع

تحديد مصطلح "أسباب النزول" عند علماء "علوم القرآن" والحداثيين

أولًا: تحديد المفهوم لمصطلح أسباب النزول عند علماء "علوم القرآن".

إنَّ الناظرَ في كتب التفسير وعلوم القرآن يجد أنَّ: مصطلح "أسباب النزول" مر بمرحلتين: مرحلة نشأة المصطلح وتقعيده، ومرحلة ما قبل النشأة (وهى الفترة الزمنية في عهد الصحابة والتابعين – رضوان الله عليهم-).

وأبدأ بالترتيب التاريخي للمصطلح وهى مرحلة ما قبل النشأة:

سمات مرحلة ما قبل نشأة المصطلح: لم يكن مصطلح أسباب النزول شائعًا عندهم لا بلفظه ولا بمعناه الاصطلاحي، وإنما كان الاستخدام لا يخرج عن المعنى اللغوي المتمثل في كونه وجهًا من أوجه تفسير النص، أو إبداء المناسبة بينه وبين غيره، فينص الصحابي أو التابعي على أنَّ (الآية نزلت في كذا) ويكون هذا محتملًا لكونه سببًا للنزول، ومحتملًا لكونه داخلًا في المعنى [(١)].

وفي هذا يقول الإمام الزركشي – رحمه الله-: "وقد عُرِف من عادة الصحابة والتابعين أنَّ أحدهم إذا قال: نزلت هذه الآية في كذا، فإنه يريد بذلك أنَّ هذه الآية تتضمن هذا الحكمَ لا أنَّ هذا كان السبب في نزولها"[(٢)].

وقد عرض شيخ الإسلام ابنُ تيميَّة ما يتعلق بهذا المصطلح من إطلاقات، فقال: "وقولهم نزلت هذه الآية في كذا يراد به تارة أنه سبب النزول ويراد به تارة أنَّ ذلك داخل في الآية وإن لم يكن السبب كما تقول عنى بهذه الآية كذا [(٣)].

وقال أيضًا: "فالذين قالوا- (بأسباب النزول)- لم يقصدوا أن حكم الآية يختص بأولئك الأعيان-(الذين نزلت فيهم)-دون غيرهم، فإن هذا لا يقوله مسلم

(١) ينظر: أسباب النزول، وازدواجية التوظيف الحداثي(ص:٣)، الحضرمي أحمد طلبة.
(٢) البرهان في علوم القرآن (١/ ٣٢).
(٣) مجموع الفتاوى (٣٣٩/١٣).

ولا عاقل على الإطلاق، فلم يقل أحد إنَّ عمومات الكتاب والسنة تختص بالشخص المعين، وإنما غاية ما يقال: إنها تختص بنوع ذلك الشخص، فتعم ما يشبهه[١].

فتصور علمائنا الأوائل لقضية نزول الآية لسببٍ، واختصاصِ الحكم بمعيَّنٍ، يتنافىَ مع التصور الحداثي للسبب وللآية التي نزلت فيه، فالعقلُ الحداثي يجعلها أسيرة لزمان ولشخص بعينه، بينما هي في المنظور القرآني تشمل الشخص ونوعه، وتتجاوز الزمان والمكان بما أودعها الله-ﷻ-من صلاحيات وإمكانات مطلقة نكشف عنها في ثنايا البحث ..

المرحلة الثانية : مرحلة نشأة المصطلح وتقعيده.

حيث نلاحظ أن من تأخر عن السلف وجعل المصطلح لقبًا لعلم من علوم القرآن فقد عرفه بعدة تعريفات، ترجع في مجملها إلى كل ما يتصل بالآية من القضايا والحوادث سواء كان علة نزلت الآية لأجلها، أو قضية ارتبطت بها ارتباطًا من ناحية الظروف الزمانية والمكانية[٢].

تعريف علم أسباب النزول: "هو ما نزلت الآية أيام وقوعه" وليس بسبب وقوعه".

فقد قطع العلماء بأنَّ "الأسباب" هي: مناسباتٌ للنزول، وليست أسبابًا استدعت نزول الآيات، واختصت بالأحكام الواردة فيه[٣].

من ذلك تعريف الإمام السيوطي لأسباب النزول بقوله: "الذي يتحرر في سبب النزول أنه ما نزلت الآية أيام وقوعه"[٤].

وممن ينص صراحة على ذلك أيضًا، الإمام الزركشي في البرهان ؛حيث يقول:" قد عُرِف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال: نزلت هذه الآية في كذا فإنه يريد بذلك أنها تتضمن هذا الحكم، لا أن هذا كان السبب في نزولها

(١) الإتقان في علوم القرآن (١/ ١١٢).
(٢) ينظر: تاريخ القرآن، لعبد الصبور شاهين(ص:٣٠).
(٣) ينظر: أفكار الحداثة الخاصة بأحكام الأسرة، د/ مصطفى مهدي محمد(٢٢٠/١).
(٤) الإتقان في علوم القرآن (١٥/١)، النوع التاسع: معرفة سبب النزول.

فهو من جنس الاستدلال على الحكم بالآية لا من جنس النقل لما وقع[١].

أمَّا أسباب النزول عند الحداثيين فهو كما يراه نصر حامد أبو زيد" من أهم العلوم الدالة والكاشفة عن علاقة النص بالواقع وجدله معه، فهو يزودنا من خلال الحقائق التي يطرحها علينا بمادة جديدة ترى النص استجابة للواقع تأييدًا أو رفضًا، وتؤكد علاقة (الحوار) و(الجدل) بين النص والواقع[٢].

ويعرف محمد سعيد العشماوي "أسباب النزول" بأنه بلُغَة العصر يمكن أن يقال إنه بمثابة: "الأعمال التحضيرية للقانون"[٣].

فإذا كانت الأعمال التحضيرية لصياغة القانون لابد منها، ولا يفهم النص القانوني أو تطبيقه تطبيقًا سليمًا بدونها فإن أسباب النزول هي ما يمثل الأعمال التحضيرية للنص القانوني، ثم يأتي النص بعد ذلك استجابة لهذا الواقع.

فتذرع الحداثيون بوجود أسباب لنزول بعض الآيات، ليصلوا من ذلك لنتيجة مفادها أنَّ: (النص يجب أن يحصر في سبب نزوله)؛ حيث إن النص في نزوله كان لمعالجة واقعة في زمانها، فلا ينسحب النص القرآني على غير تلك الواقعة من الوقائع المتجددة، وذلك لأن الإحاطة بالمعنى الذي أريد من الآية يتطلب معرفة الظروف التاريخية التي تداخلت معها، وأسباب التنزيل التي أدت إلى وجودها[٤].

ومن ثم تقتصر الصفة التشريعية لآيات القرآن جميعها على زمان وظروف نزوله، يستوي في ذلك الآيات التي ورد لها سبب نزول والتي لم يرد لها؛ وذلك لأنَّ النص القرآني كان يتنزل مراعيًا أحوال المخاطبين وظروف بيئتهم ومعيشتهم، ومن الظاهر الذي لا يستطيع أحد إنكاره أن تلك الظروف والأحوال قد تغيرت جملةً وتفصيلًا في هذه الأيام عنها في عصر التشريع؛ وعليه فلا يكون ما اشتمل عليه

(١) البرهان في علوم القرآن(٣١/١) النوع الأول: معرفة أسباب النزول. الطبعة: الأولى، ١٣٧٦ هـ- ١٩٥٧ م، الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه.
(٢) ينظر: مفهوم النص، نصر حامد أبو زيد (ص:١٠٩).
(٣) جوهر الإسلام، محمد سعيد العشماوي (ص:٢٦).
(٤) ينظر: أفكار الحداثة الخاصة بأحكام الأسرة، بتصرف(ص:٢٨١)، للدكتور/ مصطفى مهدي محمد، المجلد الأول.

القرآن من أحكام ملزمًا لأهل هذا العصر؛ بل إن لهم الحق في تغييره وتطويره بما يلائم المجتمعات الحديثة[1].

ويمكن الرد على ذلك من خلال المبحث التالي:

---

(١) ينظر: معالم الإسلام(ص:١٢٠) للعشماوي.

المبحث الخامس

إشكاليات العقلية الحداثية في تصورها لقضية أسباب النزول، وتفنيد ذلك.

إنَّ الناظر لتلك المزاعم حول قضية أسباب النزول يدرك حقيقة الزاوية التي ينظر من خلالها الحداثيون لقضية أسباب النزول، ويمكن بيانها فيما يلي:

١- أنهم ينظرون للنص من منظور اجتماعي بحت، ثم يتناولون النص من خلال الحدث الذي تضمنه، وهو ما يؤدي بالضرورة إلى حصر ذلك النص في حيز زماني محدود لا يمكن تجاوزه.

٢- كذلك يرون أن العلاقة بين النص وسببه هي علاقة علة عقلية[(١)] ، وعليه ذهبوا إلى أن أزلية القرآن تتنافى مع أسباب النزول يقول محمد سعيد العشماوي: "إن القرآن كلام الله الأزلي وجد معه منذ البدء، وأن أسباب النزول تتنافى مع هذه الأزلية"[(٢)].

وهذا هو ما أدى بهم إلى تصور أن النص أسير لسبب نزوله، وهذا يقودنا إلى تقرير مسائل في غاية الأهمية في بيان العلاقة بين النص القرآني الخالد وسياقات نزوله، وهي:

١- أنَّ العلاقة بين النص وسببه؛ هي علاقة اقتران وليست علاقة علة عقلية، أي أنَّ الآية قد نزلت ليبحث عن حكم الواقعة فيها، لا أن تُقيِّدَ الآياتِ، وترتبطَ بوقائع نزولها[(٣)].

٢- أنَّ الناظر إلى الأسباب التي نزلت فيها آيات القرآن الكريم يجد أنها غير مُضَمَّنة في النص القرآني، بمعنى: أننا نجد أن النص قد صيغ في صياغة عامة كلية حتى يفيد عموم البيان عموم الأحكام ، وحتى يظل النص القرآني الخالد

(١) يستلزم وجودها وجود حكمها أي كلما وجدت العلة وجد الحكم على سبيل اللزوم وامتناع التخلف. ينظر: "المواقف"(٤٦٧/١)، لعضد الدين الإيجي (المتوفى: ٧٥٦هـ).

(٢) جوهر الإسلام(ص: ٢٦)، محمد سعيد العشماوي.

(٣) ينظر: خطر النزعة التاريخية على ثوابت الإسلام (ص:١٦ وما بعدها).

مطلقًا عن قيود الزمان والمكان مقررًا ومؤكِدًا لقضية مَفادها أنَّ: "الحجة في لفظ الشارع ذاته لا في الواقعة التي ذُكرت سببًا" وبهذا بقيت تلك الأسباب مأثورات تروى خارج النص، ليكون لها دور في تجلية المعنى، دون أن تخصصه، إذ لو تضمنها النص في صلبه لمالت به إلى التخصيص الذي يذهب بعمومية الأحكام [١].

٣- أنَّ هذه المحدودية الزمانية والمكانية التي ينادي بها الحداثيون لا تتناسب مع نصوص الشريعة الإسلامية باعتبار أنها خاتمة الشرائع والرسالات، وقد مُنِحَت على هذا الأساس من المقومات ما يتناسب مع هذه الخاصية، وبرهان ذلك ما يلي:

١- أنَّ من مسلمات الإيمان بالله -عز وجل- ومقتضياته، الإيمان بإحاطة علمه بخلقه جميعًا، وبأحوالهم وما به صلاحهم في عاجلهم وآجلهم، فيكون من لوازم ذلك أن ما أنزله الله -تعالى- من أحكام وتشريعات يصلح لزمان الوحي وما بعده من الأزمان .

٢- أنَّ تفاصيل القضايا والمسائل التي اشتمل عليها الوحي المنزل، لا تتغير بالأزمان حقائقها؛ فالكفر هو الكفر في كل زمان ومكان، والنفاق هو النفاق، وكذلك الحلال والحرام، والطيب والخبيث، والسرقة هي السرقة بأضرارها وأخطارها، والزنا هو الزنا، وكل مفردات التشريع الأساسية لا تتغير [٢].

٣- أنَّ العلاقة بين اللفظ القرآني الذي نزل في صياغته عامًا، وخصوص سببه هي علاقة اقتران، وليست علاقة علة عقلية، فقد قطع العلماء بأن: أسباب النزول، هي: مناسبات للنزول، وليست أسبابًا استدعت نزول الآيات. قال الإمام الزركشي: "وقد عرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال نزلت هذه الآية في كذا، فإنه يريد بذلك أن هذه الآية تتضمن هذا الحكم، لا أنَّ هذا

(١) ينظر: "في فقه التدين"، د/ عبدالمجيد النجار(٧١/١).

(٢) ينظر: القراءات المعاصرة والفقه الإسلامي مقدمات في الخطاب والمنهج، عبد الولي الشلفي (ص / ١٨٦-١٨٧).

كان السبب في نزولها"[١]. أي أن الآية قد نزلت ليبحث عن حكم الواقعة فيها، لا أنها مقيدة بالواقعة أو السبب التي نزلت لأجله.

٤- أنَّ من مظاهر عالمية النص القرآني وتجاوزه إطار الزمان والمكان، أننا لا نجد في ألفاظ الآيات المنزلة ما يشير إلى أصحابها بأسمائهم أو أشخاصهم أو أعيانهم، فلا نجد ذكرًا (لخولة بنت ثعلبة وزوجها أوس بن الصامت) في الآيات التي تحدثت عن الظهار، وإنما كان التعبير بلفظ (الذِّينَ، وهنَّ) بألفاظها العامة التي تستوعب (خولة) وكل بنات جنسها، ويدخل في عمومه (أوس)، وكل من ظاهر من زوجته؛ إذ لو كان النص مُضَمَنًا أسماءً للأشخاص لمال إلى التخصيص الذي بدوره يحبس الحكم على بيئته التي نزل فيها.

وفي ذلك يقول فضيلة الدكتور/ مصطفى مهدي: "إن من مظاهر الحكمة الإلهية، أن الأسباب التي نزلت فيها آيات القرآن الكريم، غير مضمنة في النص القرآني؛ حيث كان النص المعالج لها يتنزل مصوغًا في صياغة عامة كلية؛ وذلك حتى يفيد هذا العموم في البيان عمومًا في الأحكام، وحتى يظل مطلقًا من قيود التشخيص في الزمان والمكان، وهو الأمر الذي حدا بالأصوليين أن يقرروا: "أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب" [٢].

٥- أنَّ من مظاهر الحكمة الإلهية- التي جعلت من هذا الكتاب كتابًا ممتدًا في الزمان غير منحصر بمكان- أن الترتيب التوقيفي لآيات المصحف لم يراعَ فيه الترتيب الزمني للنزول (فنجد آيات مكية داخل سور مدنية، وآيات مدنية مبثوثة في السور المكية)، وإنما روعي في ترتيبه "المناسبات بين الآيات"[٣] ولذلك خلت النصوص القرآنية من ذكر التواريخ والأزمنة المحددة كما هو

(١) البرهان في علوم القرآن، للزركشي (٣١/١).

(٢) ينظر: أفكار الحداثة الخاصة بأحكام الأسرة في ميزان الشريعة الإسلامية... دراسة فقهية نقدية (٢٢١/١)، د/ مصطفى مهدي محمد، القواعد والفوائد الأصولية وما يتبعها من الأحكام الفرعية (ص: ٣١٨) ابن اللحام، (المتوفى: ٨٠٣هـ).

(٣) المناسبة في اللغة: المقاربة، وفلان يناسب فلانًا أي: يقرب منه ويشاكله. ويراد بها: وجه الارتباط بين الجملة والجملة في الآية الواحدة، أو بين الآية والآية في الآيات المتعددة، أوبين السورة والسورة. ينظر: البرهان في علوم القرآن (٣٥/١) للزركشي.

الحال في القصص القرآني، حيث لم يكن فيها تواريخ أو حتى ترتيب زمني في أحداثها كما في قصة موسى – عليه السلام- فإذا كان الخطاب التوراتي خطاب مغلق تدور أحداثه على ثلاثة (الله وموسى وبني إسرائيل)، فإن الخطاب القرآني، وإن كان موجهًا بداية إلى قريش إلا أن أسلوبه يمتد خارج حدود القبيلة وخارج حدود الزمان والمكان وهذا يدل دلالة واضحة على أن آيات القرآن الكريم قد تجاوزت الإطار التاريخي الواقعي لها لتكون ممتدة في الزمان والمكان[١].

٦- أنَّ الفائدة من ورود أسبابٍ لنزول بعض الآيات هو حمل عموم الناس على الامتثال لشريعة الله – تعالى- من غير أن يكون في ذلك التكليف إثقال على النفوس أو نفرة منه، فحينما يتنزل النص القرآني استجابة لحادثة وقعت أو سؤال يكون تأثير ذلك في النفوس أقوى، ويكون في ذلك استجابة من الوحي الإلهي لحاجات الناس، والنوازل التي تَنزل بهم، وما يطرأ على المجتمع من قضايا وأحداث، وفي هذا موائمةٌ ومناسبةٌ بين شريعة الله المنزلة وحاجات البشر.

- فظهر من ذلك أن وجود أسباب لنزول بعض الآيات لا يلزم منه أن تكون الآيات قاصرة على تلك الأسباب؛ لأن ذلك يتناقض مع الهدف العام للشريعة الإسلامية، وهو استصلاح الإنسان بالقرآن، على اختلاف الأزمان المتعاقبة؛ لأن الخلق خلق الله – تعالى- والقرآن كلامه، ولا يتناقض كلامه سبحانه مع ما أراده من خلقه[٢].

وهنا سؤال يُطرح في غاية الأهمية، وهو: لماذا سجل علماء المسلمين تلك الأسباب والسياقات عبر التاريخ ،فحفظوها وتناقلوها، فحرص الرواة على تناقلها وتبليغها عبر الأزمان؟

(١) ينظر: ظاهرة التأويل الحديثة في الفكر العربي المعاصر(ص:٢٤٧) د/ خالد السيف.
(٢) ينظر: أفكار الحداثة الخاصة بأحكام الأسرة في ميزان الشريعة الإسلامية... دراسة فقهية نقدية (٢٢١/١)، د/ مصطفى مهدي محمد.

والجواب أنَّ: علم أسباب النزول قد نال هذه القيمة والمكانة؛ لأنَّ هذا العلم له ارتباط بالنص، فإذا كانت هذه الأسباب كُتِبَ لها البقاء والدوام، فَحِفظُ النص كانوا عليه أشد حرصًا، فجُعِل من نصيبها ما جُعِل للنص القرآني الخالد.

ومن هنا قرر علماء التفسير أنه: "لا يحل القول في أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل ،ووقفوا على الأسباب وبحثوا عن علمها، وجَدُّوا في الطلب"[١].

وقد كان هذا هو نهج علماء السَّلف، فقد كانوا يتورعون عن أن يقولوا شيئًا في ذلك دون تثبت[٢].

---

(١) العجاب في بيان الأسباب، لابن حجر العسقلاني(١/١٠٠).
(٢) مباحث في علوم القرآن، لمناع القطان (ص: ٧٦).

الخاتمة

وأخيرًا النتائج والتوصيات:

-أوصي كل طالب للحق أن يلتزم الإنصاف والحياد ، وأن يلتزم منهج أئمة الأمة السابقين ، وألا يلتفت إلى دعوات التجديد الهادفة لهدم أصالة الأمة وعراقتها.

--إعادة النظر في آلية تدريس أبواب علوم القرآن ، باستنطاق ما بها من حكم ودلائل وأسرار لخدمة النص، بعيدًا عن عرضها في قوالب جامدة.

-تخصيص باب بمجلة الأزهر الشهرية لنشر مزايا تلك العلوم الخادمة للنص القرآني.

- تدشين عدة مجموعات على وسائل التواصل الاجتماعي(يشترك بها جمع من الباحثين المتخصصين الذين يمتلكون مهارة التفنيد والفحص والرد على تلك الشبهات) بأسلوب يجمع بين قوة الإقناع ، وبساطة العرض).

فهرس المصادر والمراجع

- الإتقان في علوم القرآن. عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، تحق/محمد أبو الفضل إبراهيم/ الهيئة المصرية العامة للكتاب /الطبعة: ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤ م
- الإحكام شرح أصول الأحكام ، عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي القحطاني الحنبلي النجدي (المتوفى: ١٣٩٢هـ)ط: الثانية، ١٤٠٦ هـ.
- أسباب النزول وازدواجية التوظيف الحداثي، إعداد: الحضرمي أحمد الطلبة، مركز سلف للبحوث والدراسات.
- أسباب نزول القرآن /أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨) -دار الإصلاح/ط: الثانية.
- الإسلام السياسي، محمد سعيد العشماوي، الناشر/ مدبولي الصغير. .
- أصول الشريعة، محمد سعيد العشماوي ،طبعة القاهرة- سنة -١٩٧٩م).
- أفكار الحداثة الخاصة بأحكام الأسرة، د/ مصطفى مهدي محمد(٢٢٠/١) ،مجمع البحوث الإسلامية، سلسلة الرسائل العلمية(٢/٦)السنه الثالثة- الكتاب السادس.
- الانحرافات العقدية في أدب الحداثة"، د/ سعيد الغامدي، دار الأندلس الخضراء.
- البرهان في علوم القرآن ، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (المتوفى: ٧٩٤هـ)،تحق: محمد أبو الفضل إبراهيم.
- تاريخ القرآن، لعبد الصبور شاهين، دار نهضة مصر.
- تجديد الدين لدى الاتجاه العقلاني الإسلامي المعاصر، د/ أحمد بن محمد اللهيب، ط: الأولى_ الرياض. تحق: عبد الحكيم محمد الأنيس ، دار ابن الجوزي.

- تفسير الطبري = جامع البيان عن تأويل آي القرآن/ محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ) /دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان /الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م
- جوهر الإسلام، محمد سعيد العشماوي/ مكتبة مدبولي الصغير- ط: الرابعة ١٩٩٦م .
- خطر النزعة التاريخية على ثوابت الإسلام، د/ محمد عمارة). دار طوق النجاة ،الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ - مكتبة وهبة.
- دراسات إسلامية، حسن حنفي – طبعة بيروت، سنة ١٩٨٢م.
- سقوط الغلو العلماني، د/ محمد عمارة، طبعة دار الشروق –القاهرة سنة١٩٩٥
- صحيح البخاري ، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري ، دار ابن كثير ، اليمامة – بيروت /ط: الثالثة ، ١٤٠٧ - ١٩٨٧الطبعة الأولى، ١٩٩٧.
- ظاهرة التأويل الحديثة في الفكر العربي المعاصر، د/ خالد السيف، ط/ الثالثة ، مركز التأصيل للدراسات والبحوث- المملكة العربية السعودية.
- العجاب في بيان الأسباب، لابن حجر العسقلاني(المتوفى: ٨٥٢هـ)
- العلمانيون والقرآن الكريم"، د/ أحمد الطعان .، دار بن الحزم للنشر والتوزيع.
- القراءات المعاصرة والفقه الإسلامي مقدمات في الخطاب والمنهج، عبدالولي الشلفي.
- القراءة الحداثية للنص القرآني"، النعيمي،
- القواعد والفوائد الأصولية وما يتبعها من الأحكام الفرعية، ابن اللحام، (المتوفى: ٨٠٣هـ)(المتوفى: ٨٠٣هـ)/تحق: عبد الكريم الفضيلي /المكتبة العصرية/ ط:: ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م
- مباحث في علوم القرآن، مناع بن خليل القطان (المتوفى: ١٤٢٠هـ)،مكتبة

المعارف للنشر والتوزيع/ ط: الثالثة ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.

- مجموع الفتاوى. قي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (المتوفى: ٧٢٨هـ)، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية / نشر: دار أضواء السلف، الطبعة الأولى: ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٣ م.

- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

- معالم الإسلام، لمحمد سعيد العشماوي.

- معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية"، جلال الدين السعيد .

- معرفة أنواع علوم الحديث ،المؤلف: عثمان بن عبد الرحمن، أبوعمرو، تقي الدين المعروف بابن الصلاح (المتوفى: ٦٤٣هـ)،دار الكتب العلمية.

- معرفة علوم الحديث /أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (المتوفى: ٤٠٥هـ)الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت.

- مفهوم النص، نصر حامد أبو زيد.

- من الاجتهاد إلى نقد العقل الإسلامي" محمد أركون، ،"نقد النص" على حرب.

- المواقف، لعضد الدين الإيجي (المتوفى: ٧٥٦هـ). دار الجيل بيروت

- موسوعة الفقه الإسلامي ، محمد بن إبراهيم بن عبد الله التويجري ، بيت الأفكار الدولية ،ط: الأولى، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م

- الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة/.د. مانع بن حماد الجهني ،الناشر: دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع.

فهرس الموضوعات

ملخص البحث:.....١٣٣
مقدّمة.....١٣٦
المبحث الأول: أهمية علم أسباب النزول بالنسبة للنص القرآني ، وطريق معرفته
طريق معرفة أسباب النزول:.....١٤٣
المبحث الثاني الرؤية الحداثية لعلم أسباب النزول.....١٤٥
المبحث الثالث: القواعد التي بنى عليها دعاة الحداثة أفكارهم فيما يخص علم "أسباب النزول".....١٤٨
المبحث الرابع تحديد مصطلح "أسباب النزول" عند علماء "علوم القرآن" والحداثيين.....١٥٠
أولًا: تحديد المفهوم لمصطلح أسباب النزول عند علماء "علوم القرآن"...١٥٠
المرحلة الثانية : مرحلة نشأة المصطلح وتقعيده.....١٥١
المبحث الخامس إشكاليات العقلية الحداثية في تصورها لقضية أسباب النزول، وتفنيد ذلك.....١٥٤
الخاتمة.....١٥٩
فهرس المصادر والمراجع.....١٦٠
فهرس الموضوعات.....١٦٣